

مقدمة: قياس السعادة

لقد جعلت الحداثة الديمقراطية من السعادة فكرة جديدة، مبدأً دستوريًا، يكاد يكون واجبًا. بمجرد الاعتراف بالفرد كشخصية مركزية في المجتمع، أصبحت سعادته هي الهدف الأسمى. ولكن إذا كانت السعادة هي مقياس لكل خيار، فمن المهم العثور على مقياس لها، حتى لو كان تقريبًا. وهذا هو السبب في أن المادة الجديدة، التي استمر جمعها على مدى الأربعين سنة الماضية، أدت إلى توسيع نطاق الكميات التي يمكن للباحثين ملاحظتها.

ويعني ذلك مستوى السعادة الشخصية التي يعلنها الأفراد في الدراسات المسحية الكبيرة على السكان. يعترف خبراء الاقتصاد اليوم بأن هذا المجال المؤكد شرعي ويسعون جاهدين إلى قياسه كمياً. يأتي التركيز على مفهوم «السعادة» و«الرضا» من نفس الحركة مثل فرع علم النفس الذي يدرس الرفاهية والصحة العقلية «الإيجابية»، بدلاً من الأمراض والاختلالات.

يهتم استبيان الاقتصاديين بشكل خاص بدور الثروة باعتبارها

أساسًا للسعادة. هل المال يجلب السعادة؟ هل يجعل النمو الناس أكثر سعادة حقًا؟ وإذا لم يكن الأمر كذلك، فهل ينبغي لنا أن نختار انخفاض النمو، أو على الأقل قياس الرفاهية بما يتجاوز الناتج المحلي الإجمالي؟ هل يمكن للسياسات العامة إذن استخدام القياس الكمي للسعادة باعتباره نوعًا من البوصلة؟ يتيح لنا هذا النوع من القياس أن نفهم سبب معاناة الفرنسيين من «عجز في سعادة» كهذا، على الرغم من ظروف معيشتهم المُرضية موضوعيًا.

ومن كل هذه التساؤلات، ولد مفهوم اقتصاد السعادة. انطلاقًا من مدرسة ليدن في هولندا في السبعينيات، اكتسب هذا الاتجاه بُعدًا جديدًا منذ التسعينيات، ولا سيما بفضل توفر السلاسل الإحصائية، وتطور في أعقاب «مفارقة إيسترلين» الشهيرة، والتي تتساءل عن العلاقة بين الدخل والسعادة على المدى الطويل.

يُلهم سر هذا النمو دون سعادة، بشكل مباشر أو غير مباشر، معظم الأعمال في هذا المجال. بالنسبة للعديد من الباحثين، يبدو أن هذه البيانات الجديدة تثبت عدم جدوى النمو. فهل من المعقول في ظل هذه الظروف أن نبني مجتمعنا على العمل والاستهلاك والتبادلات التجارية؟ منطقتهم في ذلك بسيط: الهدف هو أن نكون سعداء قدر الإمكان، وإذا لم يؤدِّ النمو الاقتصادي إلى هذه النتيجة، فيتعين علينا أن نعيد التفكير في تنظيمنا من أجل تكريس وقتنا وجهودنا لأنشطة أخرى.

وبالتالي فإن مجال البحث يفتح على «حقيقة نمطية»، أي: أنها ظاهرة يُتَحَقَّقُ منها بشكل منهجي: لا نلاحظ اتجاهًا تصاعديًا طويل المدى في السعادة، حتى خلال فترات النمو المستدام مثل فترة

سنوات الثلاثين المجيدة. كيف نفسر هذا؟ قبل أن نتخلى عن النمو، يتوجب علينا أن نفهم لماذا يفشل في رفع مستوى سعادة السكان على نحو مستدام. الجواب سيكون: إن سعادة كل فرد لا تعتمد في الواقع على مستوى معيشتة، بل على الفجوة بين مستوى معيشتة ومستوى معيشة الآخرين، فضلاً عن الفجوة فيما يتعلق بمستوى طموحاتهم، والتي تتزايد مع كل تقدم يحرزوه. ولذلك فإن التأثير الضار للمقارنات الاجتماعية وعدم المساواة وكذلك ظاهرة التكيف النفسية هي التي من شأنها أن تقوض الفائدة النفسية للنمو.

تقع هذه المجموعة من الأفكار في قلب اقتصاد السعادة. لقد وُضِّحت وُنُقِشت على نطاق واسع. وقد شكك بعض الباحثين في تقييم النمو هذا المخيب للآمال، الأمر الذي أدى إلى خلق جدل لا يزال مفعماً بالحيوية. لقد كانت طرائق ظواهر المقارنة والتكيف موضوع العديد من الدراسات.

يمكننا أن نتوقف هنا عن التفكير بمنطق ونعترف بأن السعي لتحقيق النمو أمر غير عقلاني من وجهة نظر فردية وجماعية؛ لأنه يفشل في زيادة سعادة السكان. والأفضل من ذلك، في سياق العقد الأول من القرن الحادي والعشرين في أوروبا، قد نسعد عندما نعلم أن النمو ليس أحد مكونات السعادة. وفي فرنسا على وجه الخصوص، يتعذر العثور على النمو. فضلاً عن ذلك، ففي حين نتنظر اختراع النمو «الأخضر»⁽¹⁾، فإن القيود البيئية تتطلب منا أن نعمل على إبطاء وتيرة

(1) النمو الأخضر هو تعزيز النمو الاقتصادي والتنمية مع ضمان استمرار الثروات الطبيعية في توفير الموارد والخدمات البيئية التي تعتمد عليها رفاهيتنا (المترجم).

إنتاجنا، من أجل الحفاظ على موارد الكوكب. هل سيكون غياب العلاقة بين النمو والسعادة خبرًا جيدًا؟ ومن خلال تكريس أنفسنا لأنشطة أخرى، أقل عرضة للمقارنة وأكثر احترامًا للبيئة، يمكننا أن نأمل بشكل جماعي في تحقيق مستوى أعلى من السعادة.

الأمر ليست بهذه البساطة. لأنه إن كان النمو لا يجلب السعادة، فهذا لا يعني بأي حال من الأحوال أننا يمكن أن نكون أكثر سعادة، أو حتى سعداء بالقدر نفسه، من دون النمو.

فمن ناحية، إذا كانت ظاهرتا المقارنة والتكيف تقللان من تأثيرات النمو على السعادة، فإنها تستمر في العمل في سياق من الركود والانحدار، مما يؤدي إلى المزيد من التأثيرات السلبية. ومن الواضح أن ظاهرة التكيف تجعل أي تراجع مؤلم. أما المقارنات، فهي بلا شك ستكون أكثر إيلاًا في عالم جامد يمنع الجميع من أن يكون لديهم أي أمل في تعديل وضعهم النسبي مقارنة بالآخرين. ومن ثم، فإن الظواهر التي تفسر لماذا لا يجعلنا النمو سعداء تشكل أيضًا حججًا ضد فكرة التخلي عن النمو.

ومن ناحية أخرى، كشفت الأبحاث عن بُعد آخر للسعادة: أهمية المشروع، والتقدم، والترقب المستقبلي. وبقدر ما تؤدي المقارنات والتكيف إلى آثار لاحقة سلبية تقلل بالتالي من فائدة النمو، فإن الأمل والترقب، وهما نتيجة طبيعية للنمو، يلعبان دورًا سابقًا. وبالتالي، إذا كانت المقارنات والعادات تؤدي في وقت لاحق إلى إخفاء فوائد النمو، فإن غياب النمو يحرماننا من جزء كبير من مصادر سعادتنا. لقد سعى عدد معين من الأعمال إلى توضيح تأثيرات المعلومات والإشارات

التي تسمح للأفراد بتفسير الواقع الاجتماعي على أنه وعد، عندما يخبرني دخل الآخرين عن وجهات نظري الخاصة، وتعمل وجهات النظر هذه فوراً، من أجل رفاهتي الحالية.

عموماً، هل ينبغي لنا أن نتخلى عن النمو، أو على الأقل أن نتبنى مؤشراً للتقدم الاجتماعي غير الدخل القومي؟ أو، على العكس من ذلك، هل يجب علينا أن نتخلى عن رفع مستوى السعادة إلى ما لا نهاية، حيث لا طبيعتها ولا مقياسها يتلاءمان مع هذا المطلب؟ ندرك من خلال هذا التساؤل أن للنمو فضائل أخرى، وخاصة قدرته المذهلة على مواءمة سعادة المواطنين مع مرور الوقت.

وأخيراً، ربما توضح حالة فرنسا التأثيرات السلبية المترتبة على الاقتصاد الذي كان نموه ضعيفاً ومتوقفاً مقارنة بجيرانه منذ سبعينيات القرن العشرين.

أسئلة المنهج

بادئ ذي بدء، دعونا نؤكد أن اقتصاد السعادة لا يقدم مناقشة فلسفية مسبقة لما ينبغي أن تكون عليه الحياة الجيدة أو الحياة السعيدة. لا يتعلق الأمر بإسناد مصادر السعادة الفردية أو الجماعية إلى العقل، بل على العكس من ذلك، بتمرير الفرضيات والاقتراحات والنظريات المختلفة المتعلقة بالسعادة من خلال ترشيح الملاحظات التجريبية. ويشمل هذا النهج التشكيك في البيانات، أي: في هذه الحالة، الأشخاص المعنيين.

قد يبدو من المذهل محاولة قياس السعادة، وهي فكرة شخصية بامتياز. ومع ذلك، نظراً لأنها فكرة شخصية، فمن المهم ترك الأمر لكل

فرد للتعبير عن مدى هذه السعادة. وبعد ذلك، إذا كانت الجزيئات قادرة على التحدث، فهل سيرفض علماء الأحياء الاستماع إليها؟

في الدراسات الاستقصائية للأسر المعيشية، نجد أسئلة تطلب من الأشخاص مباشرة وضع أنفسهم على مقياس الرضا: «بشكل عام، في الوقت الحالي، ما مدى رضاك عن حياتك: راضٍ تمامًا، راضٍ إلى حد ما، غير راضٍ على الإطلاق؟» أو: «من 1 إلى 10، في أي مستوى تضع نفسك في مقياس السعادة؟» غالبًا ما ترتبط التفسيرات بالمستويات. على سبيل المثال، الرقم 1 يعني «غير راضٍ تمامًا» أو «تعيس جدًا» ويعني الرقم 10 «راضٍ تمامًا» أو «سعيد جدًا». وفي بعض الاستبيانات يُقدم المقياس على أنه «مقياس الحياة» ومستوياته على أنها مجموعة الاحتمالات، على طريقة هادلي كانتريل⁽¹⁾: «هنا مقياس يمثل مقياس الحياة. لنفترض أن الجزء العلوي من المقياس يمثل أفضل حياة بالنسبة لك، والجزء السفلي من المقياس يمثل أسوأ حياة بالنسبة لك. أين تضع نفسك شخصيًا على هذا المقياس في هذه اللحظة؟».

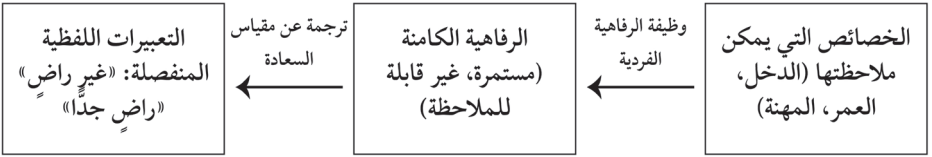
يفسر الباحثون في العلوم الاجتماعية الإجابات التي قدمها المبحوثون على أنها مقياس موجز لجودة حياتهم، وهو حكم شامل ناتج عن نوع من التوليف الشخصي الذي يفعله كل منهم بناءً على الجوانب الأكثر صلة بوجودهم. وبالتالي فإن هذه الطريقة تجعل من الممكن الاستغناء عن حكم الخبراء.

بمجرد جمع البيانات، يمكننا تقدير الأمر باعتباره نوعًا من «وظيفة السعادة الفردية»، أي: العلاقة النموذجية، ضمن مجموعة

(1) Hadley Cantril, The Pattern of Human Concerns, New Brunswick, Rutgers University Press, 1965.

سكانية معينة، بين مستوى السعادة المعلن عنه من قبل كل شخص وظروف الحياة المختلفة: الخصائص الديموغرافية مثل العمر والجنس والحالة الاجتماعية وعدد الأطفال، والخصائص المهنية مثل مستوى التعليم والمهنة والحالة الوظيفية والدخل وما إلى ذلك. يمكننا أيضاً دمج المزيد من الكميات الإجمالية، مثل الدخل القومي ومعدل البطالة ومعدل التضخم. يوفر تقدير الاقتصاد القياسي تقييماً لمتوسط الارتباط بين كل متغير وسعادة الفرد. لذا، بدلاً من التساؤل بشكل مجرد عما إذا كان النمو عاملاً من عوامل السعادة، فإن الأمر يتعلق «بطرح سؤال» عن البيانات.

هناك حاجة لاتخاذ بعض احتياطات الاستخدام. قد يكون من المفيد الرجوع إلى الرسم البياني التالي:



تعتمد سعادة الشخص جزئياً على ظروفه المعيشية الممثلة بالمستطيل الموجود على اليمين. إن «وظيفة الرفاهية» الفردية تحول هذه الظروف المعيشية إلى سعادة كامنة محسوسة. ومن ثم يجب على الفرد التعبير عن هذا المستوى من السعادة الذي يشعر به من خلال اختيار مقياس مرتبط بتسمية لفظية مثل «سعيد جداً» أو «تعييس» وما إلى ذلك.

أولاً، لتأخذ في عين الاعتبار السهم الأيمن. يمكن لشخصين يعيشان في الظروف العائلية نفسها، والمادية والاجتماعية أن يقدرها بشكل مختلف. عندما نقدر العلاقة بين الظروف المعيشية والسعادة المعلنة، فإننا نحصل على علاقة متوسطة نموذجية للسكان الذين شملهم الاستطلاع. وهذا لا يقتصر بأي حال من الأحوال على البيانات الشخصية. نحقق التقريب نفسه تمامًا عندما نقدر دالة الطلب على القهوة: فنحن مهتمون بعد ذلك بالعلاقة المتوسطة بين السعر والكمية المشتراة، مع العلم أن هذه العلاقة في الواقع تتغير حسب المستهلكين. وفيما يتعلق بالسهم الأيسر، تنشأ مشكلة أخرى.

بالنسبة للمستوى نفسه من السعادة «الحقيقية» (التي يشعر بها شخصان بالفعل)، فقد يختار أحدهما قياس أدنى من الآخر، وذلك ببساطة بسبب الطريقة التي يعبرون بها عن أنفسهم. ولكن يمكن التغلب على هذا النوع من المشكلات إذا كانت هذه الاختلافات بين الأفراد مستقرة مع مرور الوقت، وإذا كانت لدينا بيانات طويلة من الاستبيانات التي تستجوب الأفراد أنفسهم سنة بعد سنة (الاستبيانات «الثابتة»⁽¹⁾). يمكننا بعد ذلك أن نفكر في الاختلاف. يساعد ذلك في الإجابة على السؤال التالي: «ما شعور الفرد حيال حصوله على زيادة بنسبة 10% عن العام الماضي؟» مثل هذه الدراسات على العينة الثابتة لعامة السكان موجودة في ألمانيا منذ عام 1984، وفي بريطانيا

(1) العينة الثابتة (enquête de panel) هو أسلوب بحث يتضمن استخدام مجموعة متسقة من المشاركين وجمع تعليقاتهم بشكل متكرر على مدى فترة زمنية ممتدة. (المترجم)

العظمى منذ عام 1996، وفي روسيا منذ عام 1994، وفي أستراليا منذ عام 2001. وهذه القائمة ليست شاملة على الإطلاق، ولكن فرنسا ليست جزءاً منها للأسف.

خصوصية أخرى تتعلق بالسهم الأيسر: من المؤكد أنه يتم الشعور بالسعادة بقوة معينة، لكن المقياس المقترح ليس مستمراً. إنه ترتيبى (لا يمكننا الإشارة إلى مستوى السعادة بـ 2.5). علاوة على ذلك، قد تضطر إلى أن تصبح أكثر سعادة للانتقال من 9 إلى 10 مقارنة بالانتقال من 7 إلى 8. لكن هذه مجرد مشكلة فنية، يمكن التغلب عليها باستخدام نموذج إحصائي مناسب.

بيانات موثوقة؟

إذا كانت فكرة استخدام البيانات «التصريحية» قد استقبلت في البداية ببعض التردد، فقد اكتسبت الآن الاعتراف وانتشرت في جميع مجالات الاقتصاد والعلوم الاجتماعية. قد نخشى للوهلة الأولى أن هذه البيانات لا تعكس حقاً حالة السعادة التي يشعر بها الأفراد، وأنها تعاني من تحيزات الرغبة الاجتماعية، أو الحالة المزاجية، أو السياق الخاص للحظة التي يجيب فيها الفرد على الاستبيان. وبعبارة أخرى، فإن السؤال هو ما إذا كانت العبارات الشخصية تقيس أي شيء آخر غير «الضوضاء»، أي: إشارة بلا بنية أو معنى. وهناك مؤشرات كثيرة تدعو إلى التفاؤل في هذه الشأن.

أولاً: تتمتع مقياس السعادة ببنية مستقرة للغاية. توجد ارتباطات معينة بين السعادة المعلنة وظروف المعيشة بشكل منهجي، بغض

النظر عن البلد وسنوات جمع البيانات. وبالتالي فإن السعادة المعلنة تتراجع مع تقدم العمر، حيث تصل إلى الحد الأدنى عند سن 45 عامًا ثم ترتفع مرة أخرى. تقول النساء إنهن أكثر سعادة من الرجال في البلدان المتقدمة؛ فالعاطلون عن العمل هم أكثر تعاسة بشكل منهجي من العاملين، وهذا التأثير يتجاوز بكثير فقدان الدخل الناجم عن ذلك. العيش مع شخص ما هو مصدر لزيادة السعادة، وأيضًا الدين والعلاقات الاجتماعية. باختصار، هيكل السعادة المعلنة غير مفاجئ نسبيًا (باستثناء تأثير العمر)، مما يستبعد احتمال أن يكون ذلك بسبب المصادفة فقط ولا يحتوي على معلومات مفيدة.

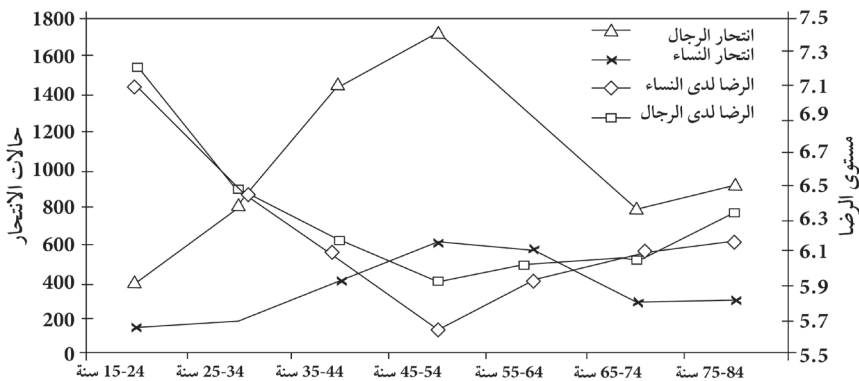
كما أظهرت اختبارات الصدق أن مستوى السعادة المعلن عنه لدى أي شخص يرتبط بشكل وثيق جدًا مع ما يشير إليه المقربون منه (الأصدقاء أو شريك الحياة)، مما يثير نوعًا من «الموضوعية» للرفاهية الذاتية التي يعيشها الأفراد. ووجدت اختبارات أخرى، ارتباطات بين مستوى السعادة المعلنة لدى الأشخاص وضغط الدم ومعدل ضربات القلب والمقاييس الفسيولوجية الأخرى. وأخيرًا، تتيح بيانات العينة الثابتة إمكانية تحديد القوة التنبؤية للعبارة الشخصية. إن مستوى الرضا الذي يعلنه الشخص في لحظة معينة يجعل من الممكن التنبؤ بسلوكه المستقبلي من حيث الحراك المهني والتغيب عن العمل، ومتوسط العمر المتوقع وحتى خطر الطلاق.

وبروح إميل دوركهايم، دعونا نوضح الارتباط بين السعادة وعدد الوفيات بسبب الانتحار في فرنسا، في الفترة 2010-2011.

من المؤكد أن سؤال السعادة يهدف أكثر إلى جمع مقاييس الصحة العقلية الإيجابية. ومع ذلك، فإن التوازي (المعكوس) بين منحنيات السعادة والانتحار حسب العمر يشير إلى أن التصريحات بالسعادة لا يمكن فصلها تمامًا عن الواقع الذي يشعر به الناس. تتزامن ذروة الانتحار، عند سن 45 عامًا تقريبًا، مع النقطة المنخفضة لمنحنى الرضا عن الحياة، لكل من الرجال والنساء. يعني ذلك عدد الوفيات بسبب الانتحار، وليس معدل الانتحار لكل 100 ألف نسمة. ويمكننا أن نتحقق بفضل الإحصائيات التي جمعتها منظمة الصحة العالمية، من أن هذا المؤشر الأخير يمثل النمط نفسه، باستثناء الزيادة في معدل الانتحار للفرد بعد سن السبعين.

الرسم البياني 1

عدد الوفيات بسبب الانتحار (2011) والرضا عن الحياة (2010)، حسب الفئات العمرية في فرنسا.



المصدر:

<http://www.cepidc.inserm.fr/cgi-bin/broker.exe>

«Satisfaction dans la vie» France, European Social Survey, 2010.

السعادة والرضا والرفاهية، هل تغطي هذه المفاهيم الركيزة نفسها؟ قد تبدو المقاربة التي اختارها الاقتصاديون غريبة، خاصة بالنسبة للفلاسفة الذين سيبدوون، في معظمهم، بمحاولة تعريف هذه المفاهيم. تتألف هذه المقاربة من عدم الحكم مسبقاً على ما يضعه الناس وراء هذه المصطلحات، ومن جمع هذه المعلومات، ثم تحليل محتواها، من خلال التساؤل، كما يفعل فلاسفة اللغة، عما يقصده الناس عندما يستخدمون كلمات «السعادة»، و«الرفاهية»... إلخ.

الاستنتاجات التي تتقاسمها المهنة بشكل عام هي كما يلي. يمكننا أن نميز ضمن مفهوم السعادة بعدين رئيسيين: من ناحية: البعد المتعي، وهو نظام الإحساس، ومن ناحية أخرى: البعد المعرفي، وهو نظام إصدار الحكم. إن الصيغة المتعلقة بالرضا («هل أنت راضٍ عن حياتك؟») قد تناسب البعد المعرفي أكثر من سؤال السعادة («هل أنت سعيد؟»)، لكن كلاهما له بنية متشابهة للغاية⁽¹⁾. ولهذا السبب سنستخدم مصطلحات «السعادة» و«الرفاهية» و«الرضا» بالتبادل هنا، حتى لو لم تكن هي الشيء نفسه بالمعنى الدقيق للكلمة.

هناك نوع آخر من الاستبيان الذي يقيد بوضوح فكرة الرفاهية في

(1) Andrew E. Clark et Claudia Senik, « Is Happiness Different from Flourishing? Cross-Country Evidence from the ESS », Revue d'économie politique, vol. 121, n° 1, 2011, p. 17-34.

بعدها العاطفي المباشر. يُطلب من المبحوثين الإشارة إلى المشاعر التي مروا بها خلال النهار أو الأسبوع الماضي أو لحظات مختلفة من جدولهم الزمني، والاختيار من قائمة تتضمن الفرح، أو المتعة، أو السعادة، أو الاسترخاء، أو الضحك، أو الابتسامة، أو على العكس من ذلك، الغضب والحزن والمخاوف والقلق والإحباط... إلخ.

انطلاقاً من هذا المنهج، يمكننا بناء «مؤشر التعاسة» (U-index) «اختصاراً لـ (Unhappiness Index)»، والذي يقيس نسبة الوقت الذي سيطرت فيه التأثيرات السلبية على التأثيرات الإيجابية. هكذا كشفت دراسة عن التسلسل الهرمي لأوقات اليوم بالنسبة لألف من سكان تكساس، من خلال مؤشر التعاسة المتزايد: العلاقات الحميمة، والعلاقات الاجتماعية بعد العمل، والاسترخاء، والعشاء، والغداء، والرياضة، والممارسة الدينية، والعمل المنزلي، ورعاية الأطفال، والتنقل بين المنزل والعمل، والتنقل بين العمل والمنزل⁽¹⁾. وترتبط هذه المقاييس العاطفية ارتباطاً وثيقاً بمؤشرات الرضا عن الحياة والسعادة، لكنها لا تمتلك الهيكل نفسه تماماً. وهي -على وجه الخصوص- أقل حساسية للأحداث الخارجية وأقل تأثراً دائماً بالتغيرات في ظروف الحياة المادية للأشخاص⁽²⁾. سنركز هنا على السعادة والرضا عن الحياة، بدلاً من المقاييس العاطفية قصيرة المدى.

(1) Daniel Kahneman, Alan B. Krueger, et al., «A Survey Method for Characterizing Daily Life Experience: The Day Reconstruction Method», Science, vol. 3, décembre 2004, p. 1776-1780.

(2) Daniel Kahneman et Angus Deaton, «High Income Improves Evaluation of Life but not Emotional Well-Being», Proceedings of the National Academy of Sciences, vol. 107, n° 38, 2010, p. 16489-16493.

السعادة أم المنفعة؟

أشرنا إلى أن دراسة السعادة مبررة بكونها الدافع العام للفعل الإنساني، الذي يشمل مفهوم «المنفعة»؛ هذا المفهوم الذي يسعى إليه الأفراد، وفقاً لعلم الاقتصاد. من الواضح أن ذلك صحيح إلى حد ما اعتماداً على العصور والمجتمعات. وحتى في مجتمعاتنا الحديثة، يبدو أن العديد من الأفعال تخضع لدوافع أخرى، وأبرزها الأعمال البطولية، والتضحية بالنفس من أجل قيم أعلى من السعادة الفردية... إلخ.

من المؤكد أنه من الممكن تفسير هذه الأفعال على أنها موجهة نحو البحث عن السعادة الجماعية المستقبلية (أو تجنب المزيد من التعاسة). ويمكن أيضاً الادعاء أنه حتى الأفعال التي تتم بدافع الواجب على حساب السعادة تلبى مبدأ اللذة، إلى حد أن الذات لا يمكن أن تكون سعيدة بدون هذه التضحية. فهل السعادة إذن مجرد هدف واحد من الأهداف التي يسعى الناس لتحقيقها، وهي أهداف تندرج تحت فئة المنفعة، أم أن هذه الأهداف المختلفة كلها جزء من مكونات سعادتهم؟

يقدم مقال كتبه أربعة اقتصاديين من جامعة كورنيل بعض الإجابات على هذا السؤال الفلسفي⁽¹⁾. قدم المؤلفون لمجموعة مكونة من 2700

(1) Daniel]. Benjamin, Miles S. Kimball, et al., «What Do You Think Would Make You Happier? What Do You Think You Would Choose?», The American Economic Review, vol. 102, n° 5, 2012, p. 2083-2110.

شخص أسئلة من نوعية الاختيار الثنائي المقابلة للمواقف المتخيلة (تجارب الاختيار). على سبيل المثال: «لنفترض أن لديك الاختيار بين عرضين للعمل. الوظيفتان متطابقتان تمامًا، باستثناء عدد ساعات العمل والراتب. تقدم الوظيفة الأولى راتبًا قدره 80 ألف يورو سنويًا لعدد معقول من الساعات، مما سيسمح لك بالنوم نحو سبع ساعات ونصف في الليلة في المتوسط. الوظيفة الثانية ستدفع لك 140 ألف يورو سنويًا، لكنها ذات ساعات غير منتظمة ولن تمنحك سوى ست ساعات من النوم في الليلة الواحدة في المتوسط. بين هذين الخيارين:

- أي خيار من شأنه أن يجعلك أسعد بشكل عام؟

- أيهما ستختار لو كان أمامك الاختيار بين هذين الاحتمالين فقط؟».

اقترح ثلاثة عشر سيناريو من هذا النوع على المبحوثين: اختيار سكن أكبر أو أقرب إلى مكان العمل؛ اختيار مدينة الإقامة الأكثر جاذبية اجتماعيًا، ولكنها أقل مهنية؛ اختيار راتب أعلى في المطلق، ولكنه أقل مقارنة بالزملاء الآخرين؛ الاختيار بين حياة مريحة بصفته فنانًا معترفًا به ولكنه صغير، وحياة في فقر يليها نسل فنان كبير... إلخ. وفي غالبية الحالات (83%)، تتزامن اختيارات الأفراد مع احتمال حياة أكثر سعادة. عندما لا يكون الأمر كذلك، فذلك لأن الناس قد أعطوا الأولوية للموضع الاجتماعي أو الواجب. لذلك توضح هذه المقالة حقيقة أن البحث عن السعادة هو ما يشكل بالفعل الدافع الأساسي للاختيارات الفردية.

السعادة أم القدرات؟

إن النقد الأكثر شراسة وقوة للعبارات الشخصية عن السعادة، وربما حتى لمفهوم السعادة نفسه، قد أتى من الاقتصادي الحائز على جائزة نوبل، أمارتيا سين⁽¹⁾. فوفقاً له، تعتمد نوعية حياة الشخص على استقلالته والإمكانات المتاحة له («قدراته»). لكن الإنسان الفقير، الذي عاش دائماً في حالة من الحرمان، محروماً من أي إمكانية للتغيير (القدرات)، يمكنه أن يعتاد على وضعه، ويتقبله، ويتأقلم معه، ويعلن أنه سعيد نسبياً. ومع ذلك، هل ينبغي أن يؤخذ إعلانه بأنه سعيد على محمل الجد؟

ويسلط هذا النقد المهم الضوء على مشكلة تفسير مقياس السعادة وفقاً للإطار المرجعي للأفراد. ومن المؤكد أنه من الضروري أن نأخذ تأثير السياق هذا في الاعتبار، وهو ما سنفعله لاحقاً.

(1) Amartya Sen, *Commodities and Capabilities*, Oxford, Oxford University Press, 1987.